

عشية انعقاد القمة العربية في عمان:

خطاب مفتوح إلى الملوك والرؤساء العرب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أعتقد أن ما يجري في فلسطين وما يقع على إخوانكم العرب أهل فلسطين غير خاف على أحد منكم. فمع وجود هذه الوسائل الحديثة للإعلام بات العالم كله مفتوحاً أمام عدسات المصورين وتقارير وكالات الأنباء. فكيف بأصحاب الحول والطول الذين تقع تحت أنظارهم من علياء مناصبهم معلومات وصور غير متاحة لعامة الناس؟!

لقد هزت العالم كله صورة الطفل الفلسطيني المحتمي خلف أبيه في الشارع إذ قتله عسكر الاحتلال برشاشاتهم من داخل حصنهم دون أن يلقوا سمعاً للأب الصارخ في البرية. ولا شك أنكم تأثرتم بها. بيد أن مثلكم يعلم أن ذلك المشهد من مشاهد التنكيل بالإنسان العربي الفلسطيني كان مجرد عينة ومثال على وقائع تجري يومياً وليلاً. فالقتلى بالمئات والجرحى والمعاقون بالآلاف. ولكل منهم قصة أليمة موجعة. وكل ما في الأمر أن الكاميرا لم تكن متوفرة في المكان لتسجيل تلك القصة عند وقوعها.

كذلك أتيح لكاميرات الإعلام أن تسجل بعض مشاهد مذابح من نوع آخر وقعت في أشجار الزيتون والبرتقال والنخيل، وفي دفيئات الخضار، وفي المصانع والمعامل ومحطات الوقود الفلسطينية. وما زالت آلات التخريب والتجريف دائبة على تطبيق سياسة الأرض المحروقة والسياسات القاضية بالدمار للفلسطينيين وممتلكاتهم من ناحية، وبتعزيز منشآت المستوطنات من الناحية المقابلة وزحفها دون توقف على أراضي الفلسطينيين ومزارعهم وكرومهم ومساكنهم. وإذا كانت تلك السياسة مستمرة ولم تتوقف يوماً منذ عام ١٩٦٧، فإنها اتخذت منذ أيلول سبتمبر ٢٠٠٠ وتيرة وأسلوباً غير مسبوقين. فالدمار يجري بسرعة مسعورة، وعلى نحو صارخ في القسوة والوحشية وعدم المبالاة. مما يبرهن بوضوح أن رجال السياسة في إسرائيل قرروا الانتقال إلى مرحلة مختلفة في تعاملها مع العرب أهل فلسطين. وهي مرحلة الهجوم النهائي، بعدما استنفذت مرحلة الإدارة أغراضها باستدراج المقاتلين الفلسطينيين إلى القفص الذي كان معداً للحجر على نشاطهم، وبتكثيف الاستيطان تحت مظلة السلام والمفاوضات السلمية. ولقد ساهم كل رئيس لوزراء إسرائيل بعد مؤتمر مدريد، بدءاً بـرابين وبيريز ونتنياهو، وانتهاءً بـباراك، بقسطه الخاص في المخادعة وفي نهب الأراضي كأنما كانت بينهم مباراة موضوعها: إعداد المسرح للفصل الذي تبلورت ملامحه في عهد باراك ثم جاء شارون ورجاله المتعطشون للدم ليقولوا كلمة الختام فيه. وفي هذا الفصل يتمتع حكام إسرائيل عن ترديد الشعار الذي يطلقه المستوطنون شعار الموت للعرب تاركين لحديد الآلات الأصم الذي يطلقونه ويراقبونه بتلذذ أن يعمل عمله ضد الحياة والأحياء كأنما في فيلم من أفلام الرعب المبتكر بواسطة خيال علمي شيطاني فظيع.

فعلى سبيل المثال وليس الحصر، لدينا قطاع غزة المكتظ بمليون ومائة ألف نسمة من البشر، محشورين في مساحة ضئيلة تجعل القطاع حتى بثلاث هذا التعداد أشد مناطق العالم اختناقاً بالكثافة السكانية، وقد زرع فيه الاحتلال مستعمرات ابتلعت ثلث مساحته الإجمالية. قام الاحتلال وآلياته وجرافاته المدرعة ذات المحركات التي تهدم المباني كما يهدم الفيل أعشاش الحباري بحملة تدمير وتخريب واقتلاع على جوانب الشوارع وفي الأراضي المحيطة

بالمستعمرات بحيث لم يعد قطاع غزة إقليما عربيا تتخلله المستعمرات، ولكن مجمع مستعمرات يتخلله (السكان) الفلسطينيون!

بقر الجنة

ومع أن ما يجري في فلسطين يعينكم ويخصكم ولا سبيل إلى التفلت والتملص منه

بمجرد تجاهله وبمجرد أن يجعل أي إنسان أصابعه في آذانه من الصواعق حذر الموت، فإن ما تنبغي الإشارة إليه في المقام الأول هو وحدة المصير العربي ومستقبل أبنائكم ومستقبل الأمة. فإذا كان للعرب أن يتقدموا فلا بد أن يتقدموا سويا، وإذا كان لهم أن يتحرروا فسويا. والأسباب التاريخية والجغرافية والسياسية لوحدة المصير العربي أوضح من أن نفصل فيها. وأبسط دليل بديهي عليها هو أن الواقع العربي الحالي القائم على فردانية كل بلد في شؤونه وفي تطوره وفي تحرره وفي تنميته واقع ضعيف فاقد الإرادة مستعبد التراب الوطني. ولقد قرع مستوطن مستجلب من روسيا إلى فلسطين، يدعى أفيغدور ليبيرمان، جرسا مجلجا في الأذان مهما كان بها وقر، وأطلق كما أطلق غيره من المستجلبين الوقحين المستكبرين صيحة الحرب والدمار، لا ضد الفلسطينيين وحدهم ولكن ضد جميع العرب والمسلمين القريبين والبعيد، على الرغم من التصريحات العربية السلمية التي درج ساستنا على اختيار ألفاظها بعناية دبلوماسية بالغة على أمل أن يقتنع الإسرائيليون والأجانب عموما أننا كبقر الجنة لا نشطح ولا نسطح. إنه وزير من وزراء شارون اليوم مثلما أن المستجلب القادم من اليمن رحب عام زئيفي رئيس حزب الترانسفير (أي تهجير الفلسطينيين أهل البلاد) وزير هو الآخر. وهؤلاء وأمثالهم هم وزعيمهم شارون لم يقبلوا أن يصدقوا يوما أن الدول العربية لا دخل لها بالصراع الناشب مع الفلسطينيين مهما حاول بعض العرب أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة الوقوف في خندق الفلسطينيين، ومهما تصرفوا على أساس كونهم مجرد (وسطاء خير) عمليا، ومهما تحدثوا عن الاستثمار والتنمية بوصفها الهاجس والشاغل الوحيد لأقطارهم المنشغلة بمشكلاتها. إن الإسرائيليون مصممون على إدخالهم جميعا، مهما قالوا أو فعلوا، ضمن دائرة الأعداء. بل إن الخطط العدوانية الإسرائيلية ربما استبعدت من حساباتها استخدام أنواع معينة من الأسلحة ضد الفلسطينيين القريبين جدا، بحكم أن مفعولها سيمتد إلى الإسرائيليين، في حين لم يجد ليبيرمان مانعا من التبجح بالتهديد باستخدام قنبلة ذرية ضد السد العالي في أقصى صعيد مصر.

أمة رغم أنوفنا

إن الإسرائيليون مصممون على اعتبارنا أمة واحدة واعتبار العمق العربي بمثابة مخزون احتياطي مؤكد قد ينزل إلى حومة الصراع في فلسطين في أية لحظة. وقد تحدث شارون قبل عشرين سنة عن رؤيته للاستراتيجية الإسرائيلية في القرن الحادي والعشرين فقال من جملة ما قال في محاضرة بتل أبيب إن الاستراتيجية الإسرائيلية يجب أن لا تتوقف عند حدود العالم العربي، بل تشمل العالم الإسلامي وتكون معنية بمدى يمتد شرقا إلى أفغانستان واندونيسيا.

وعدا عن ذلك كله، فالأهداف الصهيونية المعلنة منذ القديم والمضمرة في الحاضر والمستقبل تشير إلى ما بين الفرات والنيل حدودا للامبراطورية التوراتية. والحكام العرب يعلمون علم اليقين أن النشاط التجسسي للأجهزة السرية الإسرائيلية لم يترك بلدا خليجيا أو غير خليجي دون مسح واختراق وتغلغل في اقتصاده وفي بعض التالفين من وجوهه. وما ذلك النشاط إلا تمهيد لما هو أبعد. وعلى إخوتنا العرب أن يتذكروا أن أحدا لم يكن يحمل على محمل

الجد أثناء مرحلة تسلل اليهود إلى فلسطين في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين وقيامهم بأعمال الاختراق والتغلغل، احتمال أن يطردوا أهل البلاد خارج البلاد ويقيموا لأنفسهم كيانا على أنقاض شعب ضارب بجذوره عميقا في التربة. لكن ذلك حدث وما زال يحدث ويتفاقم وينذر بالتوسع على حساب الأمة وأوطانها، ما دام حالها يغري بها اللصوص والدخلاء.

ولقد يتوهم البعض أن رافعي شعار الاعتدال في العالم العربي هم في منجى من التحامل والبغض والحقد ونوايا الشر والأذى الصهيوني. وذلك وهم لا يفيد. فالدعايات الإسرائيلية لا تترك عربيا حاكما أو محكوما دون أن تطلق عليه سهامها المسمومة. ومعظم الدعايات الإسرائيلية موجهة إلى اليهود الأمريكيين وإلى الشعب الأمريكي بوجه عام. وهدف هذه الحملات الدعائية تشويه الأمة كلها عبر تشويه أفرادها وجماعاتها وأمرائها وشحاذيها وحكامها ومحكوميها. ولكن أكثر الناس لا يريدون أن يروا الأمور على حقيقتها، مع أن المطبوعات الصادرة بأقلام القادة الإسرائيليين لم تترك حاكما ولا محكوما إلا أوسعته تشنيعا وتشويها بمناسبة وبغير مناسبة.

الخوف من الأمريكان

من هنا يحس المرء بالصدمة وبالغربة إذ يرى الطابع التملصي البارد للموقف الرسمي العربي تجاه ما يجري في فلسطين اليوم. علما بأن ما يجري نكبة جديدة أخطر من نكبة عام ١٩٤٨.

هو نكبة جديدة، لأن الاحتلال الذي جد فوق أراضي قطاع غزة والضفة الغربية بعد نكسة ١٩٦٧، رسخ أقدام استيطانه وأقام مدنا وقرى يراد لها أن تبتلع العرب من حولها أو تقذف بهم إلى خارج الحدود. وما المستوطنون الذين ننسب لهم التطرف والتعصب إلا أداة من أدوات الدولة وسياساتها.

وهو نكبة جديدة لأن الخطوة التالية بعد إنهاء أمر المناطق الفلسطينية ستكون الهجمة الاقتصادية على العالم العربي، وإقامة مستوطنات يهودية فوق آبار النفط.

* ومع ذلك ففي أوساط البعض تفكير شائع يتناول المسألة على أساس كونها لا تخص إلا الفلسطينيين، وعلى أساس أن ما يبيديه غير الفلسطينيين من اهتمام وما يكلفون خاطرهم به من تجشم مشاق الانتقال والحضور والاجتماع أمر تقتضيه اللياقة ولا يفرضه الواجب. وأنه تصرف من نوع المعروف الذي يستحق في ذاته الشكر والعرفان.

- وهناك أوساط تعودت أن تعامل نداءات النجدة الصادرة عن الفلسطينيين على أساس كونها إحراجا في إحراج، وكون الشيكات النقدية مخرجا لا بد منه حين يبلغ الإحراج مدها.
- وقد بات الجميع يحسبون ألف حساب خشية العقوبات الأمريكية التي تطل البلدان والأفراد الحاكمين.

وها هو مؤتمر القمة ينعقد اليوم في سياق زمني لم تدع التطورات السياسية المشهودة في إسرائيل خلاله أي مجال لأحد أن يستمر في الاسترخاء على أرجوحة السلام المنتظر في أحلام اليقظة وعلى مانشيتات الإعلام. إن حكومة شارون هي حكومة حروب. وإذا لم تشن حروبا فسوف تشن مذابح وفضائح ومقالب ومؤمرات من شأنها كسب الحرب دون قتال. وقد دأبت مؤخرا على مهاجمة الرئيس ياسر عرفات شخصا وعلى الادعاء أنه غير مؤهل للسلام. وبإمكانكم أن تحددوا أن مقصدها هو تفكيك الساحة الفلسطينية وإيقاعها في الفوضى والاقتتال الداخلي، فهم يعلمون حق العلم أنه ما من شخصية فلسطينية قيادية مؤهلة للسلام غير ياسر

عرفات. وبالمثل : إن إدارة بوش تطابقت مع مقولات شارون وتبنت وهي مغمضة الأعين سياسات الاحتلال واتهاماته للجانب الفلسطيني وتهجماته على السلطة الوطنية الفلسطينية. وقد لا يكون الجنرال كولين باول أكثر انحيازاً لإسرائيل من مادلين أولبرايت، ولكنه أكثر مجاهرة بما كانت أولبرايت تحاول أن تتكتم عليه حتى لا يقال إن مبعثه يهوديتها.

عداء على طول الخط

والسياسة الأمريكية تجاهنا وتجاه صراعنا مع الاحتلال واحدة في العهدين الديمقراطي والجمهوري. لقد قبلنا الوساطة الأمريكية على أمل أن تتخذ الولايات المتحدة موقفاً متوازناً وتقوم بالضغط على إسرائيل من أجل تسوية للصراع تعطي الفلسطينيين الحد الأدنى من حقوقهم المنهوبة. ولكن موقف الولايات المتحدة كان أشبه بموقف شيخ الحارة الذي يستنجد به الطرف الضعيف في الاشتباك، فيأتي بحجة الفصل، وإذا به يمسك بذلك الطرف الضعيف الذي استنجد به، في حين يترك القوي يكيل ما شاء من اللكمات والصفعات بل والطعنات النجلاء. لقد حسبنا أن الأمريكيين سيقومون وزناً لكم ولمصالحهم الهائلة عند العرب. وقد أسرف بعض المحللين السياسيين في الحديث عن توجهات الأمريكيين لما من شأنه استقرار المنطقة حفاظاً على تلك المصالح. ولكننا نكون أغبياء ومغفلين إذا لم نستنتج بعد طول العهد أن الأمريكيين لا يقيمون للعرب أي وزن، وأنهم يعتقدون أن مصالحهم محفوظة ومستمرة ومتدفقة بفضل جيوشهم وأساطيلهم الجاثمة فوق آبار النفط وفي الجوار القريب. وأن حلفهم مع إسرائيل في المنطقة، بالإضافة إلى حرص كل رئيس أمريكي على استرضاء اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة نفسها لكي يحكم دون مشكلات وقلق يثيرها ذلك اللوبي المتنفذ، يضعهم في موقف معاد للعرب على خط مستقيم.

النار تحت الرماد

ما يجري في فلسطين اليوم شبيه بما جرى عام ١٩٤٨ حين وقعت نكبة فلسطين وغيّرت واقع الجغرافيا وواقع البشر. فالخطة التي بدأ باراك بتنفيذها وجاء شارون يتممها عملياً هي خطة الفصل. ومعناها وضع سياج أو حائط أو حقل ألغام أو نطاق ناري مسيطر عليه من أبراج المراقبة لإحاطة كل أرض في الضفة والقطاع قرروا ضمها وإبقائها تحت الاحتلال المباشر بما يجعلها محرمة على العرب أصحابها. ويشمل ذلك أراضي المستعمرات ومسافات أخرى محيطة بالمستعمرات من جميع جوانبها، كما يشمل الشوارع الالتفافية والشوارع التي تربط بين المستعمرات وبين مناطق الـ ٤٨. فلا يبقى للفلسطينيين إلا المباني التي يقطنونها تقريباً. وهي سياسة تضيق تخدم هدف التهجير وتمهد له.

أظننا وصلنا جميعاً إلى النقطة التي لم يعد بعدها مجال للتجريب وللانتهار. فأما الفلسطينيون فصامدون صمود الراضي بقدره وبالنبوءة التي بينتها الأحاديث النبوية الشريفة قبل خمسة عشر قرناً، وهم منتظرون وعد السماء بالنصرة والتأييد. وأما الأمة فباتت على التور، وضاق صدرها، وأصبح بالإمكان القول :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام

إن المرء لا يتمنى انفجار الثورات والانشقاقات والفوضى والتمردات، لأن الأعداء ربما سارعوا إلى قطف ثمار هذه الأمور قبل أن تستطيع القوى الواعية في الأمة أن تفعل. ولكن

الرؤية هي هكذا : إما موقف رسمي مختلف عن كل ما سبق، يجبر الأمريكيين على أخذ الأمة بالحسبان. وإما الفوضى والعنف والسير في طرق مجهولة نحو مصير مجهول.

الجهر بالسوء من القول

نأمل أن لا يؤخذ هذا الكلام على غير محمله. ونأمل أن لا يعد كلاما جارحا. ولكن هب أنه كذلك. ألم تصرح الآية الكريمة بأن الحق تعالى لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم؟

لقد وقع على الفلسطينيين ظلم بين لا قبل لأحد باحتماله. فأما ظلم المحتلين فمفهوم ومفروغ منه وغير مستغرب. وأما ظلم ذوي القربى فهو الأشد مضاضة على النفس.

في البرهة الأولى بعد النكبة مباشرة، حين شرع بعض اللاجئين الفلسطينيين يخرقون الحدود حوكموا أمام المحاكم العربية بتهم شتى وفقا لقانون الأحكام العسكرية وقوانين الطوارئ. وعندما انكفؤوا على أنفسهم في محاولة لإعادة بناء حياتهم من جديد قيل إنهم نسوا وطنهم واستمروا العيش في بلاد الآخرين. وعندما قاموا بالثورة المسلحة باتوا عبئا ثقيلا وقيل إنهم مجلبة الخراب. فلما نهجوا نهج الانتفاضة للمرة الثانية ولعبوا وفقا لشروط اللعبة السلمية التي شجعهم إخوانهم عليها راح إخوانهم يتفرجون على الموت والخراب الذي يستهدفهم، مستكثرين عليهم المساعدة المالية المقررة.

لقد تمخض مؤتمر كم السابق كما يتمخض الجبل فيلد فأرا. وتذكرنا بالمناسبة البرهة التي سبقت نكبة فلسطين. فآنذاك صرح عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية عقب اجتماع من اجتماعات الجامعة قائلا : إن المجتمعين اتخذوا قرارات سرية كافية لأن تثير دهشة العالم لو اطلع عليها! وتبين بعد زمن أن القرارات تحدثت عن تخصيص عشرة آلاف بندقية تجمعها الحكومات العربية مع كمية من العتاد لا تقل عن أربعمئة طلقة لكل بندقية. وترسل هذه المعونة إلى فلسطين.

لكن الذي حدث عمليا هو أن تلك المعونة لم تصل إلى فلسطين، لأنها لم تجمع أصلا!!

ونأمل أن لا يعيد التاريخ نفسه بحذافيره. بنس التاريخ وبنست الحذافير. والسلام على من اتبع الهدى ومن غار للحق ومن سينجد امرأة تموت على حاجر الاحتلال، وهي في طريقها للمستشفى. أليس كذلك يا إخوة المعتصم؟ أم أننا سنظل نردد أبيات عمر أبو ريشة :

رب وامعتصماه انطلقت ملء أفواه الصبايا اليتيم

لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم!!!

